المشرق

رأي المقتطف في العقل البشري

للاب لويس شيخو اليسوعي

١

صدّر المقتطف في شهر نيسان المنصرم (ص٢٥٢) بعض مقالاته بهذا العنوان « لا عداء في العلم ». وهو قولٌ نعمَّا اثبتهُ بمثل العلاَّمة الانكليزي ميفار الذي مع كونهِ « من الكاثوليك الشديدي التمسك بعقائد الكنيسة البابويَّة » لم يأنف بعد وفاة خصمهِ هكسلي « الكافر بكل العقائد الدينية » ان يكتب فيهِ مقالة يُثني بها على صفات قرنهِ الحسنة مع التنديد بمبادئهِ التي طالما ناقضها ميفار جهارًا

(قلنا) اننا نحن ايضاً نُسرّ بفقرات جيّدة يكتبها اصحاب المقتطف فيستحقُّون بنشرها ثناء الجمهور ويوسعون بها نطاق المعارف. الَّا أننا كثيرًا ما نرى ايضاً بين المقاطيع الواردة في تلك المجلَّة العلمية مقالات تناقض المبادئ الصحيحة ولذلك لا يسعنا الا تفنيدها لا معاداةً للعلم بل مراعاةً للحق والصواب

واذا استقرينا المقالات التي دوّنت في صفحات المقتطف منذ غرَّة هذه السنة لا نكاد نجد عددًا واحدًا يخلو من كلام يستهدف بهِ لعذل المنتقدين ويتصدّى لسهام العائبين لانَّ كثيرًا من هذه الُّبَذ يُستشفّ من ورائها ما يُشعر بمذاهب الدهريين ويُلمّ بمزاعم الماديّين ويعضد اوهام الدرونيّين كالمقالات التي عنوانها: فلسفة جديدة (ص ١ — ٥) والقتل والعمران (٤١—٤٥) وقراءة الضمير (٦٤) والمذاهب الفلسفية (١٦٩—١٩٤) وتعلُّم الحيوان (٢٤١—٢٤٥) وتولُّد العقول (٢٤٦— ٢٥١) والمراكز العقلية (٤٠٤— ٤٠٦) وعلمٌ جزًّا. هذا الى ما يعزّونهُ من مقالات الكاتب الشهير هربرت سپنسر كآرائه

الأولين (ص١٨٣—١٨٨) والموت والقيامة (٢٥٧—٢٦٠) والحياة بعد الموت (٣٢٩—٣٣٤) والعالم العتيد (٤١٦—٤٢٢) وتسلُّط الارواح (٥٠٩—٥١٣) والعرافة والسحر (٥٨٥—٥٨٩) والمعابد والمذابح والصوم والصلاة (٧٢٩—٧٣٤). في كلّ هذه الكتابات خواطر شتّى تستدعي الردود على مؤلفيها. بيد انّ ذلك يقتضي اسفارًا مطوّلة بل كتبًا ضخمة تلجئنا الى ان نكتفي بالبرض عن العدّ وبالنزر عن الكثير. وفي الاسطر التالية نجتزئ بتخطئة ما ورد في المقتطف عن « تولُّد العقول » في عددهِ الرابع من السنة الجارية (ص ٢٤٦ — ٢٥١). وقد ضمّن هذه المقالة اشياء كثيرة في العقل وخواصّهِ جاءت عثرةً في سبيل السذّج وخدشةً لمسامع ذوي النهى فضلًا عن اصحاب الدين

ولئلاَّ يظنَّ بعض القرّاء انّ في حكمنا مغالاةً او انّنا ننسب الى المقتطف ما هو براءٌ منهُ احببنا ان نورد بعض اقوالهِ بحرفها. قال المقتطف (ص ٢٤٦): « نريد بالعقل مجموع افعال الدماغ والاعصاب سواءٌ شعر بها صاحبها او لم يشعر »

وفي الصفحة التالية يُعيد المقتطف تحديدهُ السابق ثم يقول « انّ جسم كلّ حيوان من الحيوانات العليا والانسان في جملتها مؤلف من خُوَيصلات تقوم بالوظائف المعدَّة لها وهي اعمال الجسم ما دام حيًّا وهذه الوظائف موزَّعة عليها فبعضها للهضم وبعضها للتنفُّس وبعضها للافراز وبعضها لغير ذلك. وأرقاها كلّها وادقُّها بناء للشعور والتفكُّر وسائر قوى العقل وهي الدقائق العصبية التي في الدماغ. فالدماغ آلة والعقل وظيفتها وهما يرتقيان معًا وينحطّان معًا »

وكلّ الفرق الذي يراهُ صاحب المقتطف بين الانسان الناطق والحيوان الاعجم هو (و٢٤٩ و٢٥٠) « انّ الحيوان خاضع للمؤثرات الخارجية خضوعًا مطلقًا فما وافقت افعالهُ والاحوال التي هو فيها عاش واخلف نسلًا وما ضادَّت افعالهُ التي هو فيها ضعف وانقرض نسلهُ فيبقى من انواع الحيوان ما تنطبق افعالهُ على الاحوال المحيطة به فتصير افعال عقلهِ (كذا) آلية وهي المسمّاة بالغريزة . . . . . اما الانسان فارتقت قواهُ العقليَّة وقويت فيه قوَّة التمييز والارادة فصار جانبٌ كبير من اعمالهِ ارادياً اي نمت في دماغهِ المراكز العصبيَّة التي وظيفتها التمييز بين النافع والضارّ واختيار الاوَّل والابتعاد عن الثاني ولكنهُ لم يصل الى ذلك الّا بعد جهاد عنيف مدَّة قرون كثيرة ». وقال (ص ٢٥١): « والحيوانات تعيش وتموت مدفوعة الى اعمالها بقواها الغريزيَّة ولا تستعمل قوَّة التمييز التي فيها الّا قليلًا »

فهذه الاسطر التي نقلناها بحرفها عن المقتطف كافيةٌ لبيان غرض كاتبها وهي ان صحَّت تقرّض اركان الانسانية وتجعل البشر في طبقة الحيوانات لا يفرزهم عنها الَّا بعض اختلافات عرَضية في الكم والكيف. واذا ما صادفت الحيوانات احوالًا تلائمها ولو بعد جهادٍ عنيف مدَّة قرون كثيرة تنمو في دماغها المراكز العصبية وتقوى غريزتها ويزيد تمييزها الى ان تصبح شبيهة بالانسان. وليس الانسان نفسهُ على زعم المقتطف الَّا حيوانًا وُجد في احوالٍ ملائمة فتجاوز يومًا البرزخ الذي يفصلهُ عن النَّعَم. فهذه هي نتيجة قول المقتطف شاء او أبى تنجم عن قولهِ كالنتيجة من مقدَّماتها وكالثمرة من نواتها. بل اثبتها صريحًا غير مرَّةٍ في معرض كلامهِ (ص٢٤٦ و٢٤٩) افتأخذنا بعد ذلك لومة لائم ان ناقضنا هذا التعليم الوخيم الذي من شأنهِ هلاك العباد على اختلاف الاديان. وخراب البلاد في كلّ صقعٍ وآن. صان الله شرقنا العزيز من شرّ هذه النزعات او بالاحرى من عقبى هذا الجنون والهذيان

٢

فهلمَّ نُعمل نظر الفكر في قول المقتطف لنخبرهُ بمعيار الرويَّة. واوَّل ما نأبى التسليم بهِ ذاك التحديد الزائف الذي صدَّر بهِ مقالتهُ عن العقل اذ وصفهُ بكونهِ «مجموع افعال الدماغ والاعصاب» فانهُ وايم الحقّ لبئس التعريف وذلك لانَّ من اوَّل شروط التحديد ان يكون «جامعًا مانعًا» جامعًا لكل خواصّ الشيء المحدَّد مانعًا لما سواهُ. وتحديد المقتطف للعقل يخلّ من هذين الوجهين فلا يجمع كلّ خواصّ العقل ولا يفرزهُ عمَّا سواهُ

امَّا انَّ هذا التحديد لا يجمع كل صفات العقل فلانَّ العقل كما لا يُخفى يدرك الكليّات فضلًا عن الجزئيَّات ويفهم الغائبات ويبدي فيها حكمهُ ثمَّ يأخذ المحسوسات من الحواسّ ويُصلح ما وهمت بهِ في حقّها واشياء كثيرة تختصُّ بالعقل وحدهُ لا تتَّصل اليها البتَّة افعالُ الدماغ والاعصاب لان هذه الافعال كلّها هيولية ماديَّة. ولا يفيد المقتطف قولهُ انَّهُ يتكلَّم عن مجموع افعال الدماغ لان جمعها لا يغيّر طبيعتها

ثمَّ انَّهُ من المعلوم انَّ النفس بعد افتراقها من الجسد لا تزال حيَّةً وحياة النفس بالعقل والادراك ذاك امرٌ لا ينكرهُ الَّا من توغَّل في الكفر ونبذ عنهُ ربقة كل دين. والنفس بعد تجرُّدها عن الجسد لا دماغ لها ولا اعصاب. فاذن ليس العقل مجموع افعال الاعصاب والدماغ كما زعم المقتطف

ومما يبيّن فساد تحديد المقتطف العقل انهُ ليس فقط لا يعرّف كلَّ صفات العقل بل ايضاً لا يميّزهُ عمّا سواهُ. كيف لا وهو يصح ايضاً في البهيمة اتجاه نفسها ولها كما للانسان دماغ واعصاب فلمَ لا يكون فيها كما في الانسان مجموعُ هذه الافعال عقلاً. وهذه نتيجةٌ لم يستنكف عنها اصحاب المقتطف بل ربّما دافعوا عنها في مجلّتهم ولو حاولوا سترها تحت حجاب الكلام المنمّق المزخرف. فتراهم يتكلّمون عن « عقل الحيوان » و « عالم الحيوان وتعلّمه » و « تمييز الحيوان » الى عبارات اخرى لا يمكن اطلاقها على غريزة الحيوان ورسمه فقط. وغاية ما يسلّمون به ان النَّعم والبهائم لم يحصل لها ان تعيش في تربة ملائمة لتؤثر الفواعل الطبيعية في ارتقائها كما حصل للانسان وهو كان مثلها سابقاً. فهذا كما ترى نفس تعليم الدروينيين الذي طالما تاهَ المقتطف في مهامهِ خرافاتهِ وتجاهل أوهامهِ ونفّدتهُ جريدتنا البشير في احمدتها بالبراهين الدامغة (١

فشتّان بين هذا الحدّ الباطل وتحديد الفلاسفة المسيحيين الرأي من مسيحيين ومسلمين ويهود ووثنيين وكلهم لسان واحد في بيان جوهر العقل وقد حدّوهُ: « قوّة مجرّدة عن المادّة يدرك بها الانسان حقائق الاشياء ». فقولهم انَّ العقل « قوّةٌ » يريدون ان النفس تتمكّن بهِ على بعض اعمالها. وقولهم « انهُ مجرّد عن المادّة » فمرادهم انَّ العقل ليس كالقوى الهيولية التي هي في الشترك الانساني اعني في النفس والجسد معاً على مثال الخيال والحسّ بل هو غريز في النفس من حيث هي نفس انسانية اي ناطقة مجرّدة عن الهيولى. اما قولهم انَّ « النفس تدرك بالعقل حقائق الامور » فلأنَّ العقل بعد ان عرضت عليهِ الحواسّ مادة عملهِ يجرّدها عن خواصها المفردة المحسوسة ويرقيها الى عالم الفكر فتعقل النفس جواهرها الذاتية وتبدي في صفاتها حُكمها اثباتاً او نفياً وكلّ ذلك يبعد عن أعمال العصب والدماغ بُعدَ السماء عن الارض

---

١) راجع ايضاً كتاباً جزيل الافادة صنّفهُ في هذا الموضوع حضرة الاب جرجس فرج النائب البطريركيّ على الموارنة في الاسكندرية. واسم هذا التأليف « اصل الانسان والكائنات ». وللشيخ جمال الدين الافغانيّ رسالة في هذا الصدد شائقة وهي جليلة المعاني بديعة الالفاظ عرّبها الشيخ المفضال محمّد عبده المصريّ. وكذلك قد كتب حضرة الشيخ حسين افندي الجسر الطرابلسيّ مقالات حسنة في تفنيد هذا الرأي. ولجناب المعلم ابراهيم افندي الحوراني ردّ ايضاً على مزاعم دروين

٣

فبطل اذن التحديد الذي استند اليه اصحاب المقتطف لتعريف العقل وبطلانه قد تقوّض اساس بنائهم المتداعي وتضعضع ركن تعليلهم الزائف. وكان يوسعنا بعد ذلك ان نضع حدًّا لمقالتنا الوجيزة ولكن هاهنا نفحص مع المقتطف عن وظيفة الدماغ الذي نسب الى مجموع افعال العقل والادراك فنرى ما في كلامه من الصحة

زعمتَ اصابك الله ان العقل ليس الّا مجموع افعال الدماغ. فليت شعري يا صاح كيف استدللتَ على ذلك. أليس بفحص الدماغ البشري والبحث عن تركيبه. والدماغ كما لا يخفى متركب من مادة بيضاء رخوة لها ألياف كثيرة عصبيّة تحيط بها في تلافيفها العديدة مادّة اخرى سنجابية كقشرة تدونها. واذا فحصنا اصل هاتين المادّتين وكيف نشأ في رأس الطفل وجدنا انهما كانتا في الاصل حُوَيصلات او خلايا صغيرة جسيّة لم تزل تنبسط وتشتدّ حتى يتكوّن منها الخ. ذلك فضلًا عن الاعصاب التي تمتدّ في كلّ جهات الدماغ وتنقل اليه الحسّ والحركة

هذا غاية ما ينتج عن تشريح الدماغ وعن النظر المدقّق في اقسامه المختلفة. فاذا تعمّقنا في البحث ورأينا أعمال الدماغ وحُوَيصلاته وخلاياه واعصابه لا نجد فيها جميعًا على اختلاف تركيبها الّا حركات شتّى كالانبساط والانقباض والفعل والانفعال. ولكن نسأل المقتطف اين ذلك من العقل وافعاله السامية فانّ بين الحركة والفكر بونًا كليًّا. فحركة الدماغ مادّية والفكر مجرّد عن المادّة. حركة الدماغ تنقسم في كل جزء من اجزاء الدماغ وحويصلاته والفكر واحد لا يقبل الانقسام. حركة الخلايا الدماغية لا تتجاوز اطراف الدماغ والفكر لا يحصرهُ شيء. فينتقل بسرعة البرق من اقاصي السماء الى اعماق الارض. يقابل الاجناس مع الانواع والانواع مع الافراد الى ما لا نهاية لهُ. يدرك ما لا يقع تحت الحواسّ كوجود الله والفرائض الادبية والدين والجزاء والعقاب. هذا الى اختلافات أخر كثيرة قد عدّدها ابن مسكويه في كتاب تهذيب الاخلاق في فصل حسن عنوانهُ انّ النفس ليست جسمًا ولا عرضًا (ص٣—٥ طبعة مصر) نشير على كتبة المقتطف بان يطالعوا هذه المقالة ويتبصروا في معانيها. ولا يضرُّ انّ كلام ابن مسكويه ليس هو عن الدماغ فانّ حجتهُ تصحُّ عن الدماغ كما تصحُّ عن كلّ اقسام الجسم. وكنّا اثبتنا هنا قولهُ لولا الخوف من الاطالة المملّة مع شيوع الكتاب المذكور

ولعلَّ المقتطف يعترض علينا بقوله ان الاختبارات العديدة التي اجراها الطبيعيُّون والفيزيولوجيون بيَّنت انَّ العقل يزداد بنموّ الدماغ وينقص بنقصانهِ واذا استُخرج المخُّ او قسمٌ من الدماغ او قُطع بعض اعصاب المخّ اصاب الانسانَ خللٌ في شعوره ومسٌّ في ادراكهِ أفليس ذلك دليل على انَّ العقل قائم باعمال الدماغ

نجيب ان المقتطف لا يميّز بين العقل وبين الآلة التي يستخدمها العقل لعمله الخاصّ. لا ننكر انَّ الدماغ لازم للعقل وانَّهُ اذا اصاب الدماغ جرحٌ او اذًى يتأثر العقل من جرَّاء ذلك فلا يجد الى ابراز عملهِ سبيلًا. ولكننا لا نرضى بان يُخلط بين اعمال الدماغ والعقل. ومثَل ذلك مَثل الفاعل الذي لا يستغني عن الادوات التي بها يزاول صناعتهُ فان كُسرت او فُقدت فلا يمكنهُ انجاز عملهِ أفيقول احد انَّ ادوات الفاعل والفاعل واحدٌ. وكمثل الملك الذي لا بُدَّ لهُ من خَوَلٍ وخدم يساعدونهُ على اتمام غايتهِ السامية فان خامر اولئك العبيد فتورٌ او عجزوا عن الخدمة اصبح الملك مغاول اليدين قاصرًا عن مهمَّاتهِ الجليلة. ولا يخطر على بال احدٍ ان يقول انَّ الملك والخدم واحد لاحتياج الملك اليهم. فعلى هذا المنوال العقل في الانسان فانَّهُ لا يقدم على عملهِ الشريف الَّا بعد ان يتقدَّمهُ عُمَّالهُ يمهّدون لهُ الطريق ويُعدّون لهُ الاهبة التي لا مُتَّسع لهُ عنها. فان حَسُن عملُ العُمَّال حَسُن ايضًا فعل العقل. والعامل الكبير لذلك هو الدماغ الذي بدونهِ لا يقوى العقل على جليل مهمَّتهِ

امَّا حجَّة الماديين المأخوذة من كبر الدماغ وصغرهِ فهي واهية لا تصحّ في احوال كثيرة. وربَّ حيوان خالٍ من النطق كالفيل والحمار والقرد يفوق دماغهُ كبرًا على دماغ الانسان افيجسر احدٌ ان يفضّل هذه الأمم البُكم على الانسان. ولا صحَّة ايضًا لاختبارات أُخرى أجروها بوزن ادمغة كثيرين فزعموا انَّ دماغ الناس العاقلين في الهجية اخفّ من دماغ المتدنين لخيبة مسعى المختبرين وخاب املهم ووجدوا ادمغة بعض الأجلاف من سكَّان الصحارى والغابات ارجح من ادمغة مشاهير الرجال المتوغلين في التمدُّن

فهما جدَّ الماديون وكدُّوا فقد اخطأوا المرمى وعادوا بخفَّي حنين اذ لم تصب مشارطهم ومباضعهم في تشريح الدماغ سوى مادَّةٍ شبيهة بالحيوان امَّا العقل فقد طلبوهُ حيث لا وجود لهُ ولو كان في وسعهم ذرَّةٌ منهُ لما حاولوا التفتيش عليهِ كما فعلوا. وما طلبوا اثرًا بعد عين

واتمم يا كتبة المقتطف فلا تسوّدوا صفحات مجلَّتكم بتسطير هذه الاباطيل تتقلونها

عن مجلّات تشرّبت روح الكفر والزندقة وهي سمٌ زعاف تتفشّى في القلوب وبزورُ مفاسد تبذرونها في النفوس فتنمو الى ان تأتي باثمار امرّ من العلقم. فناشدتكم الله كيف يمكنكم ان تدّعوا بحفظ الآداب واثارة العقول وترقية الهيئة الاجتماعية بعد ان تزعزعوا بعبادئكم قواعد هذه الآداب وتثيروا في العقول ظلمات الشبهات وتقطعوا روابط تلك الهيئة. فارعوا عن غيّكم هداكم الله الى الصراط المستقيم

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعي

تمهيد

انَّ في لبنان عدّة اماكن وقرى تشتمل على آثار قديمة ذات شأن خطير وهي مع ذلك مجهولة لا يكاد يعرف الاهلون غير اسمها فرأينا ان نحيي ذكرها بهذه المقالة الطريفة التي وسمناها « بتسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار » نودعها ما تسنّى لنا جمعهُ من اخبار تاريخية واوصاف جغرافية ومآثر عادية. وهو مجال لا شكَّ رحبٌ الّا اننا نأمل انَّ القرّاء لا يسأمون ان يجروا فيهِ معنا أشواطاً فيجدون في كلّ طلّةٍ ما تقرُّ بهِ عينهم ويرتاح اليهِ جنانهم. كيف لا والمرء مغرًى بمعرفة بلادهِ مُولع بشرف مسقط رأسهِ ومآثر اجدادهِ. وقد حدانا ايضاً الى مباشرة هذا المشروع رغبتُنا في حفظ تلك الآثار قبل ان تستولي عليها يد الدمار (١. ولعلّ ما نذكرهُ ينشّط ايضاً بعض قرّائنا الى البحث والتفتيش فيشدُّون باكتشافاتهم أزرنا ونحن نشكر سلفاً كلَّ من يأتينا بفائدة او يُتحفنا بطرفة فيشاركنا على تحقيق الآمال التي ابديناها في مقالة سبقت لنا في المشرق (ص ٢٦١) عنوانها: « هيّا على درس تاريخنا ». وكنّا في هذه اللائحة اشرنا الى درس الآثار القديمة وعددناها بين الوسائط الكبرى لمعرفة تاريخ بلادنا. وسيكون مفتتح كلامنا على الجهات الواقعة في شمالي بيروت

١) قد درس كثير من هذه الرسوم والآثار في مدّة الخمس والعشرين سنة المنصرمة. وسنعود الى هذا الموضوع ثانية